المذبحة

يحتفل الباشا مع لاظ بك بنجاح المؤامرة على السيد عمر مكرم، ويتحدثان معًا عن أمراء المماليك، فيقول الباشا:

- لقد حان الوقت يا لاظ بك للتخلص من الأمراء.

- ولكنك صالحتهم يا أفندينا، وتركوا القتال وسكنوا العاصمة ولم يعودوا يشكلون أي خطر من أي نوع!

- أعرف يا لاظ، ولكنهم يحصلون على كثيرٍ من المال، ويمتلكون القصور والأراضي وينعمون بالخدم والأتباع..

- لقد انتهى تفكيرهم تمامًا في الوصول للحكم يا أفندينا وأنا متأكد من ذلك، ويمكنك سحب امتيازاتهم في أي وقت إن شئت، ولن تكون لديهم القوة للاعتراض، بل ولا يملكون تحريك الرعية أيضًا..

- أعرف كل هذا يا لاظ، ولكن مجرد وجودهم يزعجني..

- أمرك يا أفندينا، ماذا تريدنا أن نفعل؟

فضحك الباشا قائلًا:

- لا، لن نقرر هذه المرة ما يجب فعله، بل سنطلب منك أنت ذلك

- أنا يا أفندينا؟ ولكن كيف؟

- فكّر يا لاظ بك، فكّر ولا تقلق فسوف نساعدك.

فأخذ لاظ يفكر ثم قال:

– ما رأيك يا أفندينا لو نفتعل مناسبة كبرى أو احتفال ضخم، ونجمعهم كلهم هنا بالقلعة ونقتلهم، فهناك مكان بالقلعة إذا سقناهم إليه وأغلقنا عليهم الأبواب، فلن يتمكنوا من الهرب، ويمكننا حينها القضاء عليهم بإطلاق النار من أعلى الأبراج والأسوار.

– إنها فكرة جيدة، ولكن ما المناسبة يا لاظ التي يمكن أن ندعوهم إليها، والتي تستوجب تحركهم في موكب حافل لنسوقهم إلى حيث نريد؟

– ألم يرسل لك السلطان يا أفندينا كثيرًا من الرسائل لتوجه جيشًا لقتال الوهابيين في الحجاز؟

– ولكنني لم أقرر إرساله بعد..

– وأنا لا أقصد أن نرسله بالفعل، ولكن يمكن إيهامهم بذلك، فنقوم بدعوتهم لحضور حفل وداع لابنكم طوسون باشا قبل سفره على رأس ذلك الجيش يا أفندينا، فيتحرك الموكب ونوجهه إلى ذلك المكان.

– يا لها من فكرة رائعة يا لاظ بك!

– إنها قطرة من بحر أفكارك أيها العزيز

ويقر الباشا خطة لاظ، ويضيف إليها لمساته الخاصة، ويشرعان في تنفيذها في سرية تامة. وقام الباشا بإعلان تقليد ابنه طوسون باشا ليصبح ساري عسكر الركب الموجه إلى الحجاز، ويتم إنشاء معسكر بالفعل يحتوي

على عدد كبير من الخيام، ويتم حشد القوات فيه، وأظهر الباشا الاهتمام الزائد لإعداد الجيش، وزيادة في الخداع طلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا لإلباس ابنه خلعة السفر، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م

ويقول الجبرتي:

"فلما كان يوم الخميس رابعه، طاف ألاي جاويش بالأسواق، على صورة الهيئة القديمة في المناداة على المواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه وراكب حمار عالٍ وأمامه مقدم بعكاز، وحوله قابجية ينادون بقولهم يا رن آلاي، يا رن آلاي، ويكررون ذلك في أخطاط المدينة، وطافوا بأرواق التنابيه على كبار العسكر والأمراء المصرية الألفية وغيرهم، يطلبون منهم الحضور في باكر النهار إلى القلعة ليركب جميعهم بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب، فلما أصبح يوم الجمعة سادسه، ركب جميعهم وطلعوا إلى القلعة، وطلع الأمراء المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم، فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه، وجلسوا معه حصة من الوقت وشربوا القهوة وتضاحك معهم"

وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته وألمح إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر، وعندئذ نهض المماليك وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم، وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك، وكان يمر

بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة، وهي المنطقة التي اختارها لاظ بك، وفي نهايتها باب خرجت منه مقدمة الموكب، ثم تم إغلاقه على المماليك والجنود، وانهال عليهم ضرب النار من أعلى الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق، ولم يستطع المماليك الدفاع عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم؛ لضيق المكان الذي حُوصِروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئًا، فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصدًا وجاءهم الموت من كل مكان. وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعًا، ولم ينج منهم إلا رجل واحد كان في مؤخرة الصفوف، وقفز بجواده من فوق سور القلعة، وتلقى الجواد الصدمة ونجا هو، وفر متنكرًا إلى أن وصل سوريا فيما بعد.

وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي، استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال، حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف، أما ما فعله الباشا فهو غدرٌ بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك، ولكن مهما بلغت سيئاتهم، فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال، لكان ذلك خيرًا له ولسمعته، ولو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ

مصر، لَمَا صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية. ومن جهة أخرى، فإن الفتك بالمماليك بهذه الصورة الرهيبة، قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكنًا إلى زمن طويل أن تعود الطمأنينة إلى نفوس الناس.